المعاني التقليدية عند شُعراء الأنْدَلُس فِي تشكيل صورة المُنْقِذ الدِّيني
(صفة الشَّجاعة أنموذجاً)

الباحثة : منى مولى عبدالله

أ.د. خالد عبد الكاظم عذاري

جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

يهدفُ البحث إلىٰ دراسة أبرز خصلة نبيلة فِي شخصية المُنْقِذ الدِّيني، وهي سمة الشَّجاعة، الَّتِي تُعدُّ من أبرز القيم الخُلقيّة، والمُثل العُليا؛ لذلك أتكأ عليها شُعراء الأندلس، وكُتّابها فِي رسم صورة لممدوحهم المُنْقِذ الدِّيني الَّذِي يُدافع عَنْ مقدسات الإسلام. واقتضت طبيعة البحث أنْ يبتدأ بمقدمة، و تمهيد خُصص الحديث فيه عَنْ هَذِهِ الصفة، ومجموعة من الشواهد الشعرية الَّتِي عززت هَذِهِ السمة فِي شخصية المُنْقِذ الديني، ومن ثُمَّ الخاتمة، وقائمة بمصادر البحث، ومراجعه.

الكلمات المفتاحية : المعاني التقليدية، صورة المُنْقِذ الدِّيني، صفة الشَّجاعة.

The traditional meaning of the Andalusian poets in shaping the image of the religious savior (Courage as a model)

Researcher: Mona Mola Abdullah
Prof .Dr.Khalid Abdul Kadhum Athari

Dept. of Arabic, College of Education for Human Sciences,
University of Basrah

Abstract:

The research aims to study the most prominent noble trait in the personality of the religious savior. It is the trait of courage, which is one of the most prominent moral values and ideals. That is why the Andalusian poets and writers depended on it in drawing his picture, the religious savior who defends the sacred things of Islam. The nature of the research necessitated that it begin with an introduction devoted to talking about this trait and a group of poetic evidence that reinforced this feature in the testament of the religious savior, and then a conclusion, a list of research sources and a review.

Keywords: traditional meanings, image of religious savior, adjective of courage .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤(أ) – المجلد ٤٦ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢١

مُــقَـــدِّمـــة:

تُعدُّ المعاني التقليدية الَّتِي تحدث عنها الشُّعراء، والكُتّاب، الَّتِي شكّلت بِمُجملها اللبنات الأساسيّة لصورة المُنْقِذ الدِّيني، ومنها الشَّجاعة. ونجد أنَّ أغلب الشُّعراء، والكُتّاب يُركزون فِي حديثهم عن المُنْقــذ الدِّيني عَلَىٰ هَذِهِ السمة، وهي من أبرز القِيَم الإِنسَانِيَّة الَّتِي تَحَلَّىٰ بها المنقذون، وبوجودها فيهم اعتلــوا أسمىٰ مَرَاتِب العزة، وَالكَمال، فَجَعَلَتْ مِنْهُم الأنموذج الأمثل فتعلَّقت آمال الأنْدلُسيين بهم. لذا نجد أنَّ أغلب الشُّعراء، والكُتَّاب يُركزون فِي حديثهم عن المُنْقِذ الدِّيني عَلَىٰ هَذِهِ السمة. مما شكلت ظاهرة بارزة تستحق الوقوف عليها، ودراستها. وبهذا قُسم البحث على مُقَدِّمة، وتمهيد، ثُمَّ الخاتمة، وقائمة بمصادر البحث، ومراجعه.

وفي هذا البحث سوف نستعرض صفة الشَّجاعة، وقيمتها، والبعد النَّفِســي لها.

- **تــمــهيــد**

- **صفة الشَّجاعة:**

إنَّ صفة الشَّجاعة هي من أهم القيم الإنسانية فهي صفة مُرتبطة بقلب الإنسان، وخصلة من خصل الفروسية، وهذا ما ألمح إليه ابن حَزْم الأندلسي بقوله: ((حَدُّ الشَّجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحَريم، وعن الجار المُضْطَهَد، وعن المُسْتجير المظلوم، وعن الهضيمةِ ظلماً فِي المال، والعِرض، وفِي سائر سُبُل الحقّ سواء قلَّ من يعارض، أو كثر))[١]. وقد صرح بهذا المعنى الشاعر أبوطالب عبد الجبار المعروف بالمتنبي، ولاسيِّما بعدما استغاث أهل شرق الأندلس بأمير المسلمين ابن تاشفين(ت:٥٠٠هـ) بعدما أشرفوا عَلَىٰ الهلاك، وكثر شن الغارات الصليبية عليهم، وعظم ضررها، وسدَّتْ كُلُّ الطرق عليهم فلَمْ يجدوا غوثاً إلاَّ هذا المُنْـقِـذ الشُجاع، فجد فِي أمرهم، واستجاب لندائهم[٢].

لذا قال فيه الشاعر:

فـــــإذا أرادَ اللهُ نَصْـــــرَ ... استصـــرخَ النـــاسُ ابـــن تاشـــفينِ

فجـــاءهُم كالصُّـــبحِ فـــي إثْـــر غســـق ... مســـتدركاً لمـــا تبقـــى مـــن رَمَـــق[٣]

وافـــــى أبـــــو يعقـــــوب ... فجرَّدَ السيف مـــن[٤] القِـــــراب

وواصـــــلَ السَّـــــير إلـــــى ... وســـاقَهُ ليومِهـــا مـــا

للهِ دَرُّ مثلها مـــن وَقعَـــــــةْ ... قامـــتْ بنصـــر الـــدينِ يـــومَ الجُمعـــة

وثُـــلَّ للشـــرك هُنـــاكَ عَرشُـــــــهُ ... لـــم يُغـــنِ عنـــه يومـــه

واتصَلَ الأمـرُ علـى نظِـامٍ	**وامتـدَّ ظـلُّ اللهِ**
وانصـرفتْ علـى العَـدوّ الكـرّه	**ورَجَـعَ الجَمْـعُ كـأول**
فتلك خيلُ اللهِ في العـدوّ	**تَعيـثُ فـي الـرواحِ**

أكد الشاعر فِي هذا النص أنَّ إنقاذ الإسلام فِي الأندلس متوقف عَلَىٰ عزيمة، وحميَّة ابن تاشفين كأنَّما القوة، والشجاعة الَّتِي يمتلكها هذا المُنْقِذ الديني هي مستمدَّة من تأييد الله سبحانه، وتعالى لا يُمدَّها إلاَّ لمن كَانَ الإيمان راسخاً فِي عقيدته، فالشاعر يُشبِّه قدوم ابن تاشفين لإنقاذ الأندلس بحلول الصباح الَّذِي ينبئ بحلول يوم جديد مليء بالتفاؤل، والأمل.

لذا((تدارك أمير المسلمين الموقف فِي شرق الأندلس، وأعاد إليها الأمن، والطمأنينة بعد أنْ طهَّرها من الصليبيين الذين عاثوا فيها فساداً))[٧].

وقد ذكر الشاعر فِي معرض كلامه الانتصار الَّذِي أحرزه يوسف بن تاشفين فِي معركة الزلاقة، وذَلِكَ مِنْ أجل الإشادة ببطولات هذا المُنْقِذ الديني، ومن هذا المنطلق نلحظ الشاعر قد ضمَّن نصه الشعري بألفاظ دينية؛ لكي يزيد من عظمة، ومكانة هذا المُنْقِذ الديني، وكذلك ليوحي للمتلقي أنَّ جهاد المُنْقِذ كَانَ فِي سبيل إنقاذ الإسلام من براثن الكُفر؛ لذلك جاء التعبير الشعري زاخراً بالمعاني الدينية، وقد تجلَّى ذَلِكَ بوضوح فِي صدر البيت الأخير عندما أضاف كلمة الخيل إلىٰ لفظ الجلالة(الله).

فالشاعر أبوطالب أراد عِبْرَ هَذِهِ الأبيات أنْ يوحي أنَّ أصل الصراع بين الإفرنج، والمسلمين هو صراع ديني بالدرجة الأولى؛ لأنَّ هم أسبانيا النصرانية هو القضاء عَلَىٰ الإسلام فِي الأندلس، وجعل الديانة النصرانية هي الأساس عَلَىٰ اعتبار أنَّهم سُكَّان البلاد الأصليين، والمسلمين هم دُخلاء عليهم.

وهذا بدوره قد جعل من أهل الأندلس يبحثون عن سبل الخلاص الَّتِي لاحت لهم بظهور المُنْقِذ ابن تاشفين الَّذِي غدا ملاذاً للعلماء، والضعفاء، والمضطهدين، وأصبح رمزاً للأمة بأسرها[٨].

وعَلَىٰ هذا الأساس نستطيع أنْ نحكم أنَّ يوسف بن تاشفين قد تجلَّت فيه شخصية المُنْقِذ الدِّيني فِي أبهىٰ صورها بل إنَّ هَذِهِ الشخصية استطاعت أنْ تفهم الدين بشكلهِ الصحيح[٩].

ولعلَّ فِي كلام عبد الواحد المراكشي ما يؤكد ذَلِكَ حيث قال: ((كَانَ رجلاً كامل العقل بعيد الذكاء، هادئ الطبع عميق الإسلام لبى داعي الجهاد فِي الأندلس دون تردد، وكَانَ الإيمان بالإسلام هو مفتاح هَذِهِ الشخصية فقد نهض بالإسلام، وللإسلام))[١٠].

وبذلك تألق نجم يوسف بن تاشفين، وذاعَ صيته فِي الأندلس، وغدا فِي نظر الفقهاء، وأهل الأندلس هو مُنْقِذ، ومبعوث العناية الإلهية[١١]، بل غدا يوسف معقد آمال الأندلسيين، وقد اعتقدوا عن يقين أنَّ الله قد

اصطفاه بشجاعته لإنقاذ الإسلام[١٢]، وقد جاء فِي حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يؤكد ذَلِكَ بقوله: ((الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده))[١٣].فإنَّ صفة الشَّجاعة الَّتِي انفرد بها يوسف بن تاشفين دون غيره من زُعماء العرب قد أبهرت الشعراء، وجعلهم يعلقون آمالهم عليه فقد راح الشاعر أبو الحسن بن الجد يمدح ابن تاشفين، وكَانَت غايته من ذَلِكَ الثناء، والمدح لشخصه هو عَلَىٰ سبيل الاستنجاد به، وطلب الغوث، والنجدة من أجل تخليصهم من حكام الأندلس الطُغاة المفسدين[١٤] بقوله:

فقل لمن نام :أصبحت — قضى بك الليل نحباً وانقضى السمر

وانظر إلىٰ الصبح سيفاً فِي يدي ملك — فِي الله من جنده التأييد

يرعى الرعايا بطرف ساهرٍ — كما رعاها بطرفٍ ساهر

فالشاعر فِي هَذِهِ الأبيات يُثني عَلَىٰ ممدوحهِ، ويضفي عليه صفات دينية فهو يعدُّه المُنْقِذ الدِّيني الَّذِي يتحمل مسؤولية إنقاذ، ورعاية المسلمين فِي الأندلس؛ ولكي يؤكد صفة الإنقاذ الَّتِي ظلَّت تدور فِي فلك ابن تاشفين جعل دوره فِي هَذِهِ الأبيات مشابهاً للدور الديني الَّذِي كَانَ يقوم به خليفة المسلمين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، لذا عَمَدَ فِي الشطر الثاني من البيت الأخير إلىٰ تشبيه يوسف بن تاشفين فِي عدله، وتقواه بالخليفة عمر بن الخطاب (رض) حيث أراد الشاعر من هذا التشبيه أنْ يوحي أنَّ رعاية المسلمين، وحمايتهم يكون رجل الدين أولى بها لما يتصف به من العدالة، وإنصاف المظلوم، ونصرة الإسلام، وهذا يدل عَلَىٰ أنَّ الشَّجاعة تحمل بعداً نفسياً عميقاً مُتأصلاً فِي روح هذا المُنْقِذ؛ لأنَّ ((الشَّجاعة ليست فِي قوة الساعد، بل فِي قوة النفس، وعزوفها، وعفتها، والشَّجاعة هي فِي الصبر، وقوة الاحتمال))[١٦].

فالشاعر عِبْرَ تمجيد هذا المُنْقِذ يحاول الاستجارة بِهِ من أجل إغاثة شعبه، وإنقاذهم من حكم ملوك الطوائف، والوقوف بوجه الإفرنج، فالشاعر حاول أنْ يوضح عِبْرَ هذه الابيات أنَّ مصير الإسلام فِي الأندلس متعلق بوجود هذا الرجل المرابطي كأنَّما أبياته هَذِهِ قد جاءت تأكيداً لما صرَّحَ به الدكتور حسين مُؤنس بقوله: ((مصير الإسلام كله كَانَ إذْ ذاك مرتبطاً بوجود المرابطين، أو غيرهم من جند المغرب فِي الميدان، وأنَّه فِي اليوم الَّذِي يكفُّ فيه أولئك المغاربة عن الزياد عن الأندلس سيتلاشى أمر الإسلام فيه، وأنَّ وجود المرابطين مهما كانوا أفضل من ترك البلاد بغير حماية))[١٧]. وبهذا يُطالعُنا مُنْقِذٌ آخر نلمح فيه صوتاً لشاعر آخر ينادي بإنقاذ الدين فِي الأندلس فراح ابن الزقاق (ت٥٢٩ه) مادحاً المُنْقِذ مُشيداً بدوره البطولي المُشرِّف فِي إنقاذ الدين الحنيف بعدما غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء الإسلام، ونشرت الصلبان فوق المنائر الَّتِي كَانَ يقرأ فيها الآذان من قبل، وأخذت النواقيس تقرع للقداس بعد أنْ كَانَ يدعى فيها للصلاة، وأخذوا يطاردون المسلمين بكل ما يملكون من أساليب الغدر، والخديعة، هدفهم من ذَلِكَ محو الإسلام فِي إسبانيا[١٨]، وقد أشار إلىٰ ذَلِكَ بقصيدته الَّتِي وجَّهها إلىٰ أحد أُمراء المرابطين بقوله:

يـــــا أيُّهـــــا الملـــــــكُ الـــــذي ... يومَ الطِّعان كشعلةِ النيـــــــــــرانِ
كـــمْ جبـــتَ فيـــه بعزمـــةٍ أرض العِـــدا ... فتركتهـــــا قفـــــــراً بـــــــلا
وهَدمْتَ من بيـــعٍ لهـــم وكنائـــــــــــسٍ ... وكسرْتَ مـــن صُـلبٍ ومـــن أَوثـــان
وجـــررتَ أذيـــال الكتائـــبِ رافـــــــلاً ... بين الصوارمِ والقنا الرَّيـــــــان
فالـــدينُ موقـــوفٌ عليـــكَ رجـــــــاؤهُ ... أنْ يُســـــــــتباحَ الشـــــــركُ[١٩]

فابن الزقّاق فِي نصه هذا يوجَّه خطابه للأمير الَّذِي يُعدُّهُ مُنْقِذاً دينياً، وعَلَىٰ عزيمتـــه، وشـــدة بأســـه يتوقف إنقاذ الإسلام فِي الأندلس، فهو يرىٰ فِي ممدوحه الَّذِي خاطبه باسم (الملك) صورة المُنْقِذ الشُجاع فهو القادر عَلَىٰ حماية الدين، ونصرته، فلذلك أطمأنت به قلوب الأندلسيين، وعمَّها الأمان بوجود هـــذا الأميـــر القائد.

وفِي الجانب الآخر نجد الشاعر ابن سارة الشنتريني (ت ٥١٧هـ) ينهج نهج ابـــن الزقـــاق فهـــو يشـــيد ببطولات المرابطين، ويعدَّهم المنقذين لهذا الدين، وعَلَىٰ رأسهم أميرهم أبو بكر بن إبراهيم بـــن تيفلويـــت ، ويثبت فِي ضوء شعره عَلَىٰ أنَّ دفاعهم عن الأندلس هو دفاع عن بلاد المسلمين فِي الأندلس فيقول فِي هـــذا الجانب مادحاً لأميرهم، وراسماً له عِبْرَ هذا المدح صورة المُنْقِذ الدِّيني الَّذِي طالمـــا تشـــوقت إليـــه نفـــوس الأندلسيين بقوله:

لِـــمَ لا تُـــراحُ شـــريعة التقـــوى ... وجفونُها مِنْهُم تَرى أنْصَارَهَــــــا؟
ضَــــرَبوا سُــــرادِقَ بَأْسِـــهِمْ مِـــنْ ... وَقَدْ اشْرَأبَّ الكُفْرُ يَهْـدِمُ دَارَهــــــا
لَبِسوا القُلُوبَ على الدُّروعِ فدوَّخُوا ... أَرْضَ العِدى واستَأصـلوا كُفَّارَهـا[٢٠]
أوْدتْ[٢١] **زِنَـــادَ المُسْـــلمينَ لَـــهُ ... بالنُّجْحِ تَقْدَحُ مَرْخَها وَعَفارَهــــــا**
واقْذِفْ نُحُور المشركينَ بِجَحْفَـلٍ ... يَمْحـــــو مَعـــــالِمَ أرْضِـــــها[٢٢]

وقد أكد الشاعر عن طريق هَذِهِ الأبيات الدور البطولي الَّذِي قام به المرابطون فِـــي الأنـــدلس، الَّـــذِي استحق عن طريقه أنْ يتصف هؤلاء المرابطون عَلَىٰ أنَّهم منقذون للإسلام فِي الأندلس.

وقد أكد ذَلِكَ المؤرخ عبد الواحد المراكشي فِي مطلع كلامه عَـــنْ دولةِ المرابطين بقوله: ((وقد فرضت الأندلس عَلَىٰ المرابطين مسؤولية ثقيلة فقد كَانَ عليهم أنْ يواصلوا الحرب، والجهاد فيه دفاعاً عن الإســـلام؛ لأنَّ الاندلس كانت دار جهاد، وقد دخلها المرابطـــون مُجاهـــدين، وكَـــانَ علـــيهم أنْ يســـتمروا فِـــي هـــذا الصراع))[٢٣].

وهذا ما دفع الشاعر؛ لكي يثني عَلَىٰ منْقِذهِ الدِّيني (أبي بكر بن إبراهيم)، وفي الوقت نفسه يؤكد عَلَىٰ أواصر القرابة الَّتِي تجمع بين المرابطين، والأندلسيين فهم ينتسبون إلىٰ أُمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فحريٌّ بهم أنْ يكونوا حماةً لهذا الدين، والشريعة، وفي هذا المعنىٰ يقول:

حَاشَا لأرْنُدِ شَرعَنَا مِنْ كَبْوَةٍ ... وَيَدُ ابنِ إبراهيمَ تُوري
أصْفَى مواردَها أزاحَ سَقَامَهَا ... أَحْيَى خَوَاطِرَها أقَال
أولِيَّ أُمَّةِ أحْمَدٍ، ... مُذْ صِرتَ مِنْ جَوْرِ الحوادِثِ جَارَها[٢٤]

عَمَدَ الشاعر فِي هَذِهِ الأبيات إلىٰ فكرة واحدة يريد أنْ يوحي بها إلىٰ المُنْقِذ عَلَىٰ أنَّه كفيل بحماية الشريعة، وصيانتِها فلهذا أخذ بتذكير المُنْقِذ بهذه الأمة الإسلامية، وهي أُمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، الَّتِي تربطهم برابط واحد هو العقيدة الإسلامية الَّتِي تُعدُّ أكبر مُحفَّز تعمل عَلَىٰ إثارة روح النخوة لدىٰ المسلمين، وتدفعهم إلىٰ تلبية نداء الصريخ، لهذا حاول الشاعر عَلَىٰ زخَّها فِي نصه بصورة مكثَّفة من أجل تشويق هؤلاء المنقذين، وبالأخص الأمير أبي بكر بن إبراهيم للدفاع، والتضحية، ولعل المُنْقِذ الَّذِي تعلَّق الأندلسيون به الَّذِي كانوا يتمنون أنْ يكون حاضراً دائماً بينهم كلَّما مرُّوا بضيق ذَلِكَ المُنْقِذ الدِّيني الَّذِي أصبح بالنسبة لهم كالأمل الَّذِي يمدَّهم بالحياة، وهذا ما جسده الوزير عبد الحق بن عطيَّة (ت ٥٤١ه) فِي قصيدته، وهو ينظر إلىٰ الأمير عبد الله بن مُزْدلي نظرة المتأمل الَّذِي عَلَىٰ يده سوف يحيي معالم الدين بعد أنْ خيَّم عليها ظلام الكُفر أظهره مُنْقِذاً للدين بأسلوبه قائلاً فيه:

ضَاءَتْ بنُور إيابِكَ ... واعتَزَّ تَحْتَ لِوَائِكَ الإسْلامُ
أمَّا الجَميعُ ففي أعَمَّ مسرَّةٍ ... لمَّا انْجلَى بظهُورِكَ الإظْلامُ
بادَرْتَ أجْرَكَ في الصِّيام مُجاهداً ... ما ضَاعَ عِنْدَك للثغورِ ذَمَامُ
وَصَمَدْتَ مُعْتزماً وسَعْدُك مُنْهَضٌ ... نَحْوَ العِدَى ودليلُكَ الإقدامُ
كَمْ صَدْمَةٍ لَكَ فِيهمُ ... غَصَّ العراقُ بِذِكرِها والشَّامُ
في مَأزِقٍ فيه الأسِنَّةُ ... بَرْقٌ ونَقْعُ العادِياتِ غَمَامُ[٢٥]

إنَّ الشاعر فِي هذا النص رسم صورةً واضحةً صوَّر فِي ضوئها المُنْقِذ عَلَىٰ أنَّهُ حامٍ للشريعة، وأَنَّ المسلمين يأملون طلعته عليهم فهو أملهم الوحيد الَّذِي عَلَىٰ يدهِ سوف يُحرر ثغور المسلمين من دنس عبدة الأوثان حَتَّى إنَّ الشاعر راح يصف هذا المُنْقِذ عَلَىٰ أنَّهُ يتَّقد عزيمة، وإقداماً عَلَىٰ خوض الحرب بالرغم من

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤٦(أ) – المجلد ٤٦ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢١

أنَّهُ صائم ، فهو يحاول أنْ يجمع بين أجر الصيام، وأجر الجهاد فِي آنٍ واحد دليل عَلَىٰ ثقة هذا المُنْقِذ الديني بنصر الله عَلَىٰ أعدائه، ورباطة جأشه.

من هنا يمكن القول إنّ الشاعر قد اتسمت الصورة الَّتِي رسمها لهذا المُنْقِذ فِي نصّه الشعري بالطابع الدِّيني العقائدي قدَّم فِي ضوئها لوحة عكس فيها الجانب المشرق لهذا المُنْقِذ الديني مُتمثلة بشخصية الأمير عبد الله بن مزدَلي.

ويبدو أنَّ طلب المُنْقِذ الدِّيني لَمْ يختصر عَلَىٰ الشعراء فقط، وإنَّما حَتَّى الكتَّاب أخذتهم الغيرة عَلَىٰ وطنهم فراحوا ينشدون هذا المغيث فِي قصائدهم، وهذا صوت الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال (ت ٥٣٩ه) في مُخمَّسته الَّتِي يسترجي بها الأمير أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف ليدرك المسلمين فِي الأندلس من الضياع، ولهذا عمد الكاتب أبو الخصال لاختيار قصيدة أبي تمَّام ليبني عليها مُخمَّستهِ اقتداءً بالخليفة العباسي المعتصم عندما استنجدت به امرأة فاستجاب لها[٢٦]، وفِي هذا المعنىٰ يقول:

وانْهَض نُهوض أبيَّ النَّفس معتزم ... واسلكْ سبيلَ أبي إسحاق معتصمِ

وخُذْ بثأرك في البَيْضاءِ واحتكم ... يا غيرةَ اللهِ قد عاينتِ

بغزو مُحتسبٍ لا غزو مُكتسبِ

وارْمِ العَدُوَّ بسهمٍ منك لم ... وانعشْ بحزمِكَ ذاك الثَّغر يَنْتَعش

وارغَبْ بتابعِ أصحاب الهدى حنش ... عن كُلِّ رجْسٍ لحر الجمر مفترشِ

وارْبَأ بأعظُمهِ عن ذلك اللَّهَبِ[٢٧]

فالشاعر عِبْرَ هَذِهِ المُخَمَّسة يبثُّ الحماسة فِي نفس هَذا المُنْقِذ الدِّيني (إبراهيم بن يوسف) ليُحرَّضه عَلَىٰ الانتقام لأخذ الثأر من ابن رذمير ردّاً لفعله الشنيع، وما عاثهُ فِي مدينة قورية فراح يقتل أهلها، ويسبي نساءهم، وأطفالهم، ويحرق دور العبادة فيها، ومن أجل أنْ يرفع من عزيمة هذا المُنْقِذ يُذَكِّرَه فِي قصيدته ببعض الشخصيات القيادية الَّتِي كَانَ لها دور كبير فِي إنقاذ من يستجير بهم مثل المعتصم العباسي فِي فتح عمورية، وكذلك ((عبد الله الصنعاني الَّذِي دخل الأندلس فاتحاً))[٢٨]، ولهذا يخاطبه بنبرة حماسية تؤكد عليه الاقتداء بهما.

والشيء الَّذِي يلفت الانتباه إليه هو أنَّ شعراء الموحّدين أخذوا يطورون فِي معانيهم، وأساليبهم الَّتِي استندوا إليها فِي رسم صورة المُنْقِذ إذْ أضافوا إلىٰ صفة الشَّجاعة مثالية الدين مع احتفاظهم بالموروث الشعري القديم، وكنتيجة حتمية لموجةِ الدين القوية الَّتِي غطّت معالم هَذِهِ الدولة عَلَىٰ أساس أنَّها قائمة عَلَىٰ دعائم دينية رصينة، فكَانَ لابد لشُّعراء الموحّدين أنْ يلوّنوا قصائدهم بنفحات إيمانية تضفي نوعاً من القداسة،

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٦ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢١

والوقار ممتزجة بخصلة الشجاعة عَلَىٰ من ينظرون إليهم أنَّهم خلاصهم الوحيد من هذا الواقع المرير الَّـذِي يعيشونه فِي ظل سطوة العدو النصراني، ولعل هذا الشيء كَانَ بارزاً بوضوح لدىٰ بعض شعراء الأنـدلس، وكَانَ الشاعر الرصافي (ت ٥٧٢هـ) هو أحد الشعراء الذين تعلَّقوا، وأعجبوا بزعماء الموحّـدين؛ ((لأنَّهـم ذادوا عن حُمى الإسلام، ووحدوا الأندلس، والمغرب تحت راية إسلامية واحدة، وجاهدوا أعداء الله، والوطن بلا هوادة، أو فتور))[٢٩] ، وهذا كَانَ يبدو بوضوح فِي إحدىٰ قصائده الَّتِي راح يتخيل فيها عبد المؤمن بـن علي الكومي (ت ٥٥٨ه) مُنْقِذاً للإسلام فِي الأندلس بل يبدو أنَّ هَذِهِ الشخصية قد انفردت بخصال الشـجاعة، والكرم، والعدل، والعفة، والإباء[٣٠]، وكأنَّ الشاعر يرىٰ فِي الخليفة عبد المؤمن المُنْقِذ الشُجاع الَّذِي لا يتمكن أحد الوقوف بوجهه مهما كَانَت قوته، وجبروته[٣١]، وهذا ما كَانَ يتجلَّى بوضوح فِي أبيات من قصيدته الَّتِي ألقاها بين يدي الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما نزل بجبل الفتح (جبل طارق)، وأنشده هَذِهِ القصيدة الَّتِـي كَانَت تفيض بالروح الدِّيني[٣٢]، حَتَّى إنَّ الرصافي ((كَانَ يتلمس المُنْقِذ فِي عبد المؤمن))[٣٣] كقوله فيه:

وحيثُ قامت قناةُ الدين تَرْفُلُ في	**لواء نَصْرٍ على البَّرينِ مَنْشُـورِ**
في كفِّ مُنْشَمرِ البُرْدَيْـــنِ ذي وَرَعٍ	**على التُقَى وصفاءِ النَّفْسِ مَفْطورِ**
يلقاكَ في حالِ غَيْبٍ من سَرَيرتِهِ	**بعالمِ القُدْسِ مَشْهورٍ ومحضــورِ**
ما عنَّ في الدين والدُّنيا له أربٌ	**إلاَّ تأتَّى له مِنْ غَيْر تَعْذِيـــرِ**
ولا رَمَى من أمانْـــيه إلى غَرَضٍ	**إلاَّ هَدَى سَهمَهُ نُجَحُ المقاديـــرِ**
حتى كأنَّ له في كُلِّ آونــةٍ	**سلطانَ رقٍّ على الدُّنيا وَتَسْخيـــرِ**
مُميَّزُ الجيش مُلْتَفّاً مواكِبُـــه	**منْ كلِّ مثلولِ عرشِ المُلْك مَقْهُورِ[٣٤]**

فالرصافي قد أبدع فِي رسم صورة لهذا المُنْقِذ بحيث جعل التعبير الشعري مفعماً بالمعاني الدينيـة الَّتِي يبدو فيها عبد المؤمن مُحاطاً بهالة إيمانية يستمد قوته، وشجاعته فيها من الله تعالى، وتمكنـه مـن فرض سيطرته، وإخضاع كُلَّ شيءٍ لإرادته، فالشاعر أراد فِي ضوء وصفه للمُنْقِذ الدِّيني بهذه العظمـة، والوقار، والقوة هو أنْ يوحي عَلَىٰ أنَّ عبد المؤمن مُؤهل؛ لكي يقود الجيوش الإسلامية من أجـل إنقـاذ المسلمين فِي الأندلس من العدو الصليبي.

نستشف فِي ضوء هَذِهِ القصيدة مُحاولة الرصافي فِي رسم صورة شعرية تتجلَّى فيها ملامـح المُنْقِـذ الدِّيني الَّذِي يتمنى الشاعر وجوده بينهم ليحقِّقَ أمل الشاعر فِي إخراج الأندلسيين من الضـياع، والتمـزق، وجعل سيادة الدين الحنيف لا يعلو عليها دين آخر، وطرد هؤلاء الكفار.

فالرصافي كَانَ صادقاً فِي رسم هَذِهِ الصورة للحاكم، والدليل عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يمدح الأُمراء فِي شـــعره؛ لأَنَّهُ لَمْ يتَّخذ الشعر وسيلة للكسب بل لغاية أخلاقية(٣٥).

ولعل الشيء الَّذِي يُلْحظ عَلَىٰ أبيات الرصافي هو النبرة الدينية الَّتِي كَانَت واضحة بل طاغية بشـــكل كبير عَلَىٰ جو القصيدة مما يدل عَلَىٰ المخزون الثقافي الدِّيني الَّذِي يمتلكهُ هذا الشاعر، والَّذِي مكَّنه من رسم صورة يبدو فيها هذا المُنْقِذ قائداً شجاعاً، وإماماً عادلاً، ورعاً، وهذا بحد ذاته يدل عَلَـــىٰ الملكـــة اللغويـــة، والإبداعية الَّتِي صقلها القرآن فهو متأثر به، وبتعاليمه الإسلامية لذا يبدو لنا فِي هذا الـــنص كأَنَّمـــا يحـــسُّ المتلقي أَنَّهُ يبحرُ فِي جو ديني عميق.

الخاتمة :

فِي ضوء ما سبق يتبين لنا إبداع شُعراء الأنْدَلُس فِي رسم صورة مشرقة للمُنْقِذ الديني تجعلهُ ينفرد بشجاعة منقطعة النظير، وأحياناً تكون هَذِهِ السمة ممزوجة بروح التضحية، والإيثار، وروح التعاون دفاعاً عن مبادئهم، وعقيدتهم الإسلامية السامية.

وهذا نابع من حب هؤلاء الملوك، والقواد بأنْ يوصفوا بهذه الخصلة النبيلة دليل عَلَىٰ عظمتهم وقوتهم، ومكانتهم الاجتماعية. وهذا ما ولَّدَ رغبة لدى شعراء المرابطين، والموحّدين، وبني الأحمر فِي إبراز الجانب القوي المتمثل بالشجاعة النادرة الَّتِي ينماز بها المُنْقِذ الديني أمام خصمه قِوى الشر الصليبية، لذا أهتمَّ شُعراء الأندلُس فِي زخ هذه الصفة بشكل مبالغ فيها فِي نصوصهم الشعرية من أجل إعلام العدو بأَنَّهم يمتلكون القوة، والحماية الَّتِي يحْظون بها بوجود المُنْقِذ الدِّيني بينهم فحب شُعراء الأنْدَلُس لأرضهم، ومقدساتهم جعلهم يركزون عَلَىٰ هذه السمة فِي قصائدهم الَّتِي لوَّنوا بها بطولات المُنْقِذ الديني، وقد شغلت فكرهم، ووجدانهم فعبروا عنها بألذ الكلمات.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤(أ) – المجلد ٤٦ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢١

هوامش البحث :

(١) كتاب الأخلاق والسير : ١٠٥.

(٢) يوسف بن تاشفين مُوحد المغرب، وقائد المرابطين ومُنْقِذ الأندلس من الصليبيين: ٤٠٥.

(٣) وردت في خريدة القصر، وجريدة العصر (قسم شُعراء المغرب والأندلس) : (٢/ ٢١٥) (مبتدراً كالماء ينفي في رَنَق).

(٤) وردت (عن) في المصدر. نفسه: (٢/ ٢١٥).

(٥) وردت (اذْ فُونْشَه) في المصدر. نفسه: (٢/ ٢١٥).

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق١/مج ٢/ ٩٤٤، وخريدة القصر وجريدة العصر: (٢/ ٢١٤–٢١٥).

(٧) يوسف بن تاشفين مُوحد المغرب، وقائد المرابطين ومُنْقِذ الأندلس من الصليبيين: ٤٠٥.

(٨) المصدر. نفسه: ٩.

(٩) ينظر: جوانب الرشد في حكم المرابطين في المغرب (٤٨٤هـ–٥٤١هـ–١٠٥٦م–١١٤٦م):٤٠.

(١٠) وثائق المرابطين والموحدين:٤٧.

(١١) ينظر: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين:٥٩.

(١٢) ينظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين:٨٠.

(١٣) نهاية الأرب في فنون الأدب:٢٢٠.

(١٤) ينظر: الوطن في الشعر الأندلسي:١٢٠.

(١٥) أعمال الأعلام: (٢/ ٢٢٠).

(١٦) في النقد والأدب: (٢/ ١٢٤).

(١٧) نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، من(٥٢٠–٥٤٠): ٢٣.

(١٨) ينظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين: (٢/ ٧٩–٨٠).

(١٩) ديوان ابن الزقّاق البلنسي: ٢٦٩.

(٢٠) وردت في خريدة القصر وجريدة العصر (أنفارها) : (٢/ ٣٢٧،٣٢٦).

(٢١) وردت في المصدر.نفسه :أوردت.

(٢٢) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: ق٤/ ٨٣٦، وخريدة القصر وجريدة العصر: (٢/ ٣٢٦–٣٢٧)، وابن سارة الأندلسي حياته وشعره: ٢١٤–٢١٥.

(٢٣) وثائق المرابطين والموحدين: ٣٦.

(٢٤) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان: ق٤/ ٨٣٦، خريدة القصر وجريدة العصر: (٢/ ٣٢٧).

(٢٥) المصدر.نفسه: ق٣/ ٦٥٨، والمصدر.نفسه : (٣/ ٤٩٢).

(٢٦) هامش رسائل ابن أبي الخصال : ٣٩.

(٢٧) المصدر. نفسه :٤٨.

(٢٨) هامش المصدر.نفسه : ٤٨.

(٢٩) شعر الرصافي الرفاء البلنسي (دراسة موضوعية فنية) :٣٤.

(٣٠) ينظر: المصدر. نفسه :٣٧

(٣١) ينظر: المصدر. نفسه : ٣٧

(٣٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي: (٥/ ٤٣٠).

(٣٣) ديوان الرصافي البلنسي : ١٥.
(٣٤) المصدر.نفسه: ٨٩-٩٥.
(٣٥) ينظر: المصدر. نفسه: ١٦.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤(أ) – المجلد ٤٦ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢١

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً : الكتب

١. ابن سارة الأندلسي حياته وشعره، د. حسين أحمد النوش، مكتبة دار الهلال، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
٢. أعمال الأعلام، لسان الدين بن الخطيب(ت ٧٧٦هـ)، تح: سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
٣. تاريخ الأدب العربي(عصر المرابطين والموحدين)، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
٤. تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، المؤرَّخ الألماني يوسف أشباخ، ترجمة: مُحمَّد عبدالله عنان، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.
٥. التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبدالمنعم حسين، دار المعرفة الجامعة، الإسكندرية ، (د.ط)، ١٩٩٧م.
٦. خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس)، للعماد الأصفهاني، تح: آذرتاش آذرنوش، تقديم: مُحمَّد العروسي المطوي ومُحمَّد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ط٢، ١٩٨٦م.
٧. ديوان ابن الزقّاق البلنسي، تح: عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).
٨. ديوان الرصافي البلنسي، أبي عبدالله مُحمَّد بن غالب، تح: إحسان عباس، دار الشروق، ط٢، ١٩٨٣م .
٩. الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني، تح: إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ط)، ١٩٩٧م.
١٠. رسائل ابن أبي الخصال، أبو عبدالله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، تح: د. محمد رضوان الدّاية، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٨م.
١١. في النقد والأدب، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٤، ١٩٧٩م.
١٢. قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ابن خاقان(ت ٥٢٩هـ)، تح: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ١٩٨٩م.

١٣. كتاب الأخلاق والسير، أبو مُحمَّد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي(ت ٤٥٦هـــ)، تح: إيفا رياض، راجعه وقدم له وعلَّق عليه: عبد الحق التركماني، دار ابن حزم (د.ط)، (د. ت).
١٤. نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين من (٥٢٠ – ٥٤٠)، د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٠م.
١٥. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، المؤسَّسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
١٦. وثائق المرابطين والموحدين، عبدالواحد المراكشي، تح: د. حسين مؤنَس، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ١٩٩٧م.
١٧. الوطن في الشعر الأندلسي (دراسة فنية)، د. عبدالحميد شيحة، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط١، ١٩٩٧م.
١٨. يوسف بن تاشفين موحد المغرب، وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين، د. حامد مُحمَّد خليفة ، دار القلم ، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.

ثانياً: الرسائل الجامعية.

١. جوانب الرشد في حكم المرابطين في المغرب(٤٨٤ه – ٥١٤ه) (١٠٥٦م – ١١٤٦م)، نداء محمد ناقد مشهور بهلول، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، كلية الآداب، غزة، ٢٠١٤م.
٢. شعر الرصافي الرفاء البلنسي(دراسة موضوعية فنية)، خالد شكر محمود صالح الفراجي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية التربية – ابن رُشد، ٢٠٠٣م.